مجلة حوليات التراث
ADP
Revue Annales du Patrimoine
P-ISSN 1112-5020 / E-ISSN 2602-6945

الشّخصية بين إكراهات الغربة وهاجس الهُوية في رواية "نبَّاش زنقَة بارِيس" لعبد الله طواف

Character in the novel "The Paris Alley Nabbach" by Abdullah Tawaf

د. الحسين اخليفة
أكاديمية سوس ماسة، أكادير، المغرب
akhlifaelhoucine@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/6/30 - تاريخ القبول: 2025/8/7

25
2025

الإحالة إلى المقال:
* د. الحسين اخليفة: الشّخصية بين إكراهات الغربة وهاجس الهُوية في رواية "نبَّاش زنقَة بارِيس" لعبد الله طواف، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد الخامس والعشرون، سبتمبر 2025، ص 25-42.

BY-NC-ND

http://annalesdupatrimoine.wordpress.com

***

مجلة حوليات التراث، العدد 25، 2025، ص 25 - 42
P-ISSN 1112-5020 / E-ISSN 2602-6945

الشّخصية بين إكراهات الغربة وهاجس الهُوية في رواية "نبَّاش زنقَة بارِيس" لعبد الله طواف

د. الحسين اخليفة
أكاديمية سوس ماسة، أكادير، المغرب

الملخص:

يتناول هذا البحث قضية الهجرة إلى الديار الأوروبية، من زاوية الشخصية في رواية "نباش زنقة باريس" للكاتب المغربي عبد الله طواف. إذ يسعى إلى رصد إكراهاتها النفسية والاجتماعية المترتّبة على البعاد وفراق الديار، وصعوبة الاندماج والتأقلم مع الثقافة الغربية. وفي ظل هذه التحديات والإكراهات ينبري سؤال الهوية، فتتساءل الذوات عن ملامحها الشخصية والثقافية والحضارية مقارنة بين الأنا والآخر، والهنا والهناك. وحينما تستوعب الصراع الحضاري القائم بين الثقافتين، فإنها تحاول التعايش مع ظروفها في المهجر. غير أن ثقافة البلد الأصل ونظرة الذات العربية إلى الآخر الغربي، قد لا تسمح لها بذلك في أحايين كثيرة. وهو ما يكرِّس غربتها ومعاناتها، ويجهض أحلامها ومشاريعها. هكذا تشتغل الذاكرة وتتداخل الأمكنة والأزمنة، وتتفاعل الأنساق الثقافية والحضارية المتباينة في وعيها، مما يحقق لذة النص وغناه المعرفي والجمالي.

الكلمات الدالة:

الشخصية، الهوية، الهجرة، الأنا، الآخر.

Character in the novel "The Paris Alley Nabbach" by Abdullah Tawaf

Dr Elhoucine Akhlifa
AREF Sous Massa, Agadir, Morocco

Abstract:

This study examines the issue of immigration to Europe from the perspective of the character in the novel "The Paris Alley Nabbach" by Moroccan author Abdullah Tawaf. It aims to highlight the psychological and social constraints resulting from separation and the difficulty of integrating into Western culture. In light of these challenges and constraints, the question of identity is raised, as the characters question their cultural and civilizational components, comparing the self with the other. This is how memory works, places and times overlap, and

تاريخ الاستلام: 2025/6/30 - تاريخ القبول: 2025/8/7
akhlifaelhoucine@gmail.com
© جامعة مستغانم، الجزائر 2025

diverse cultural and civilizational systems interact in their awareness, achieving the pleasure of the text and its cognitive and aesthetic richness.

Keywords:

Personality, Identity, Immigration, Self, Other.

توطئة:

يعتبر موضوع الهجرة أحد الموضوعات المُستأثِرة باهتمام الأدب شعره ونثره على امتداد التاريخ، وذلك لِما يثيره من إشكالات وقضايا ومشاعر فيَّاضة، مفعَمة بألم الفراق والغربة والحنين إلى الأهل والوطن. ولا أدل على ذلك مما نلمسه في ما بين أيدينا من نصوص يونانية؛ كملحمة الأوديسّة لهوميروس، ورحلة هيرودوت التي كانت بداية حقيقية لنشأة علم التاريخ. كما نقرؤه في التراث الشعري العربي الغنِيّ بألم مفارقة الأوطان والبكاء على الأطلال.

ولا يشذُّ عن ذلك التراث النثري، على نحو ما نجد في حكايات ألف ليلة وليلة، ومقامات الهمذاني (ت 398هـ) والحريري (ت 516هـ)، والملاحم الشعبية، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري (ت 449هـ)، وحكاية حي بن يقظان لابن طفيل (ت 581هـ). بل إن الرواية وُلدت مع رائعة سيرفانتيس (ت 1616م) الأكثر شعبية وشهرة في العالم "دون كيشوت"؛ فلولا رحيل دون كيشوت من أجل إحياء زمن الفروسية، لما راكم المغامرات الحالمة والأحداث الجديرة بأن تُحكى. ثم تبلورت في الزمن الراهن أعمال روائية عربية ومغربية كثيرة ألقت الضوء على فعل الهجرة وتداعياته وآثاره.

ويمكن أن نستحضر في هذا الباب - على سبيل التمثيل لا الحصر - رواية "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم (ت 1987م)، و"الحي اللاتيني" لسهيل إدريس (ت 2008م)، و"المرأة والوردة" لمحمد زفزاف (ت 2001م)، و"موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح (ت 2009م)، و"ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي، ورواية "نباش زنقة باريس" لعبد الله طواف التي نروم مقاربتها لاعتبارات ذاتية وموضوعية، من زاوية تصوير شخصياتها المغتربة، وبيان

دور الذاكرة في لَمْلَمة خيوطها الحكائية والخِطابية، وقياس درجة وعي الذوات السردية بسؤال الهوية وتمثُّلها للأنا والآخر.

1 - أحلام مُجهَضة بين الهنا والهناك:

انبنى عنوان الرواية على ركيزتين نصِّيتين؛ إحداهما مرتبطة بحسن النباش إحدى الشخصيات التي حظيت بوزنها القوي في تأثيث النص وتشكيل عوالمه الخِطابية والحكائية والسردية، والأخرى متصلة بزنقة باريس بوصفها الفضاء الذي تدور فيه وقائع حكاية هذه الشخصية ومجرياتها وأحداثها في تعالُقها مع غيرها من الشخصيات. والنبَّاش صفة مشتقة دالة على المبالغة، مُستقاة من فعل "نبش الشيء ينبُشه نبشا: استخرجه بعد الدفن، ونبْش الموتى: استخراجهم، والنباش: الفاعل لذلك، وحرفته النِّباشة"[1].

لُقِّب بالنباش لانشغاله بفحص المزابل وجمع النفايات والمتلاشيات والأجهزة المستعملة في باريس والمتاجرة فيها. وكان قبل ذلك ذا أسرة وأباً لبنت، فهو زوج فاطمة العروبية التي عاشت حياتها في المغرب، دونما التحاق بزوجها في المهجر. وقد أفضت ظروفه الاجتماعية الصعبة وتراكم ديونه إلى توتر علاقته بالزوجة والصِّهر، فتقطَّعت عندئذ صلته بأسرته وبلده.

ويعود أصل النزاع إلى تكليف صهره ببناء بيت في القرية، إلا أنه لما طالبه بوثائقه أرغد وأزبد، مطالبا إياه برفع الدعوى إلى المحكمة. وكانت النتيجة أن خسر القضية، بناء على أن القرائن والأدلة كلها شهدت ضده. فقد ادعت زوجته: "أن المنزل بناه والدها من ماله الخاص، وأن ما كان يبعث به الزوج لا يكفي لتسديد الديون المتراكمة. آنذاك لم يبق للنباش سوى إعلان الاستسلام. جمع حقيبة السفر. سفر بعودة مؤجلة إلى إشعار آخر"[2].

لا يمكن فصل الذوات السردية في حقيقة الأمر عن الفضاءات الذي تتحرك داخلها، لكونها البُؤَر الناظمة لها والمحددة لأوجه تفاعلها مع من حولها. يُطلق الفضاء في النص السردي على "مجموع الأمكنة المستخدمة"[3]، ويكون أوسع و"أعم من المكان، لأنه يشير إلى ما هو أبعد وأعمق"[4]. وقد غدا ركنا

مكينا في الأعمال الأدبية بعامة والسردية بخاصة، بالرغم من كون التفكير النقدي المعاصر لم يبلور بعدُ تصورات نظرية وأدوات إجرائية ومفاهيم علمية دقيقة لدراسته على النحو المطلوب. إذ يعد "من أقل العناصر الروائية إثارة لاهتمام الدارسين والمنظِّرين. ومَن صادف منهم أن أولى للموضوع عناية خاصة، نظر إليه نظرة جانبية تقلِّص من شموليته، وتختزل أبعاده الطوبوغرافية والدلالية والرمزية"(5).

اتخذت علاقة الذوات السردية بفضاء المهجر والبلدة منعطفات وأبعادا متباينة، على امتداد مسلسل الأحداث في الرواية. فقد مارست كينونتها ووجودها في فضاءات متعددة، متراوحة بين قرية (تكاض) الواقعة جنوب مدينة أكادير، ومدينة باريس عاصمة الأنوار. "تكاض قرية قديمة تخترقها طريق كانت ذات زمن طريقا قادمة من الشمال في اتجاه الجنوب. يسمِّيها الأهالي (طريق الرفَّاكة) أو (التُّبُوريدَة)، هذه الطريق القديمة التي لم أصادفها بعد في مصادر تاريخ المنطقة. تشهد على تلك الهجرات القديمة التي كان يقوم بها سكان المنطقة والمناطق الأخرى، قادمين من الشمال في اتجاه الصحراء أو بلاد السودان"(6).

ولَئن كان لهذا الفضاء على امتداد التاريخ موقعه الجغرافي والاستراتيجي المتميز، إلا أنه أصبح يكرس في زمن الحكاية معاناة أبنائه وقاطنيه، مما يجعلهم مضطرين إلى هجرته بحثا عن لقمة العيش. ذلك أننا نجد إشارات سردية كثيرة دالة على إقدامهم على بيع أراضيهم للفلاحين والملاكين الكبار، مما انعكس سلبا على ظروفهم الاجتماعية. "حالة البؤس التي تركوا عليها قراهم وبواديهم، تفاقمت أكثر مع ظهور الزراعة الرأسمالية التي زحفت على أراضيهم، بل التهمتها"(7).

وعلى هذا النحو حاصرت إكراهاتٌ جمّة هذه الذوات، فجعلتها عاجزة عن تدبير أمورها وحل المشكلات التي تؤرِّقها، متراوحة بين الضغوطات المادية والنفسية؛ من قبيل الاكتئاب، والوحدة، والانحراف، والتعاطي للخمور والمخدرات، والملاحقات الأمنية في الغرب، والنظرية الدونية لسكان البلدة. وهو

ما جعلها على تنوع صورها في الرواية، تبوء بالفشل في حياتها الاجتماعية والمهنية، على غرار ما تلخصه عبارة إبراهيم الماسّي الذي ذاق مرارة التجربة، نخاطب أبناء جلدته بقوله: "ليس لكم مكان هنا، وليس لكم مكان هناك"[8].

ولنا أن نستحضر كيف قدِم هؤلاء إلى بلاد المهجر، والحلم يغمرهم بمستقبل مشرق وغد أفضل. كان النباش على سبيل التمثيل شابا "تحيط به زمرة من شباب قريته، يقضون معظم لياليهم في السمر. يسهرون معظم الليل، يُهيِّئون عشاء جماعيا، يتحدثون عن مشاريعهم المستقبلية"[9]. بيد أنه سرعان ما تفرقت بهم السبل، فاختار كل منهم وجهته الخاصة. ويكمن الفشل أيضا في انتشار البطالة في أوساط المهاجرين، وقلة ساعات العمل. "ساعات العمل الطويلة المطلوبة زمن الرخاء انتهت، ولم يعد سوق العمل يسمح سوى بساعات قليلة، وبالبطالة الطويلة"[10].

هذا وتأتلف شخصيات الرواية في كونها متحدرة من قرية تكاض؛ مثل بوكرن، وخاله، وحسن النباش، وعبد الرزاق، وإبراهيم، والحاج علي، وزوجته، والحسن. كما تأتلف في تقاسمها علامات الإحباط والخيبة والعجز عن التوفيق بين البلد الأصل والمهجر، فظلت مشدودة بين الفضاءين. ساءت حال النباش وتدهورت بعد أن تفرق عنه أصدقاؤه، فلا يخرج من شقته أو غرفته سوى للقيام بحملة في القمامات أو لاقتناء حاجياته الضرورية.

ولنا أن نتأمل مبلغ الوحدة التي يكابدها لما زاره بوكرن في غرفته، فلم يعد يستحمل أحدا لفرط وحدته. "يتحاشى معاشرة الناس حتى الأقرباء هجرهم، لم يعد يزورهم كما كان يفعل من قبل"[11]. وقد كان قبل حصول النزاع بينه وبين زوجته وصهره، يحمل مشروع العودة إلى الوطن والاستقرار فيه "القرية طفولتي. أنا ذاهب إلى طفولتي. كان يردد هذا قبل زواجه". لكن هذا المشروع عرف تعديلا كبيرا، لما تقطعت جميع الروابط والصلات التي تربطه بالبلدة. فصار كل ما يحلم به، "مجرد امتلاك قبر يؤوي صاحبه بعد موته"[12].

ويمكن التمييز في شخصيات الرواية، بين من يرمز إلى الجيل الأول من

المهاجرين القادمين إلى فرنسا من بلدان عربية كالمغرب؛ من قبيل: النباش، وإبراهيم، وبوكرن، وخاله، والحاج علي، وزوجته. ومن يحيل إلى الجيل الثاني، مثل عبد الرزاق وسميرة. وبالرغم من الفروق الجوهرية القائمة بين هذين الجيلين، إلا أن القاسم المشترك بينهما هو الفشل في تحقيق المحلوم به، فجاءت مشاريعهم مجهضة. فقد حصل إبراهيم على تقاعده من فرنسا، ثم استقر ببلدته التي تبدلت كثيرا. فظل يتنقَّل بين الوطن والمهجر، إلى أن تأزمت حاله تأزما نهائيا جراء انتحار بوكرن. "لم يبتسم إبراهيم للشرطية، كما لم يبتسم للموت الذي طرق باب شقته ذات صباح... تمسك بإطار الباب مليّاً ثم استسلم للسقوط"[13].

أما الحسَن فقد ألقت الطائرة بجثمانه في مطار بنسركاو، فنقلته سيارة الإسعاف إلى بلدته. فلم يجد في استقباله سوى الأهالي والأقارب، الذين هرعوا إلى المقبرة لتوديع الفقيد القادم إليهم في صندوق خشبي. "هكذا هي الغربة. هل أنصفته فرنسا التي مات بين يديها؟ في أحضانها؟ لا أحد يعرف كيف مات. كل ما يعلمه الجميع أنه كان في صحة جيدة، خدوما عاملا مجدا في عمله. كيف مات؟ ولما ذا مات؟ (هذا قدر من الله)"[14].

ثم إن عبد الرزاق الموظف قبل هجرته، كان رهانه هو الارتماء بين أحضان الحضارة الغربية، والنهل من معينها الفياض. لذا تزوج سميرة ابنة الحاج المقيم بفرنسا، وغدا فقيها يؤم الناس في المسجد. غير أن فشله في زواجه، جعله يكابد الغربة والضياع ويحِن إلى الوطن. "اكتشف أنه يحدث نفسه بصوت مسموع، وأنه كان يحاور أمه التي لاحت له صورتها من بعيد. تقترب منه وهو يبتعد. لا يريد أن تراه وهو في حالة من التشرد. الوحدة تلفه"[15].

وما قيل عن عبد الرزاق المؤهّل للاندماج في المجتمع الغربي، يسري على سميرة التي ترعرعت فيه. بيد أن عجزها عن التوفيق بين ثقافتين متعارضين، وحمْلها من السينغالي أبْدُولاي، أفضيا إلى انفصالها النهائي عن عبد الرزاق وأسرتها، فكانت نهايتها مأساوية؛ حيث إن "سيارة صغيرة تقترب منها... تواصل السير غير مكترثة. السائق لم يحترم علامات المرور. السيارة ترتطم بكل قوة بجسد نحيف

نحافة سنونوة، خرجت توّاً من بياتها الشتوي"[16].

وبذلك فإن رؤية السارد قائمة على رسم صورة قاتمة لهذا الضرب من الهجرة، إذ لم يجعل شخصية من تلك الشخصيات مُوَفقة في هجرتها. والسر في ذلك على ما يبدو أنها لم تنسلخ عن ثقافة الجيل الأول، فظلت محاصرة بها، عاجزة عن التوفيق بين مقتضيات الأصالة وإكراهات المعاصرة الغربية. وتبعا لذلك، جاء الخطاب السردي في الرواية يترجم ما يعتمل في دواخلها من تداخل الوقائع والأحداث، وتدافع الأمكنة والأزمنة، واللوْذ بالذاكرة لاقتناص التفاصيل الهاربة.

2 - تشظِّي الزمن ووهج الذاكرة:

يقوم السرد في الرواية على تشغيل الذاكرة، واستدعاء ما ترسّب فيها من حالات ومواقف وذكريات، منتمية إلى سياقات وظروف وأزمنة متباينة، فيتراءى الوطن بهذا الشكل في صور مفعمة بالحياة والعواطف الجيَّاشة. ذلك أن الوطن لا يمكن اختزاله في ما هو مادي، "فليس مجرد جغرافيا ميتة، عارية، مجهولة. إنه علاقة طرفاها الإنسان والجغرافيا. وهذه العلاقة هي المواطنة بكل ما تعنيه من انتساب وطمأنينة وأمن، وألفة وشعور بالكرامة"[17].

هذا ويرتبط السرد في جانب كبير منه بماضي الزمن وما احتضنه من أحداث ووقائع وتفاصيل، ومن هنا ينبثق دور الذاكرة والتذكر. يختلف (زمن القصة) – في تقدير تزفيتان تودوروف (Tzvetan Todorov) - عن (زمن الخطاب). إذ يجسد الأول زمنا خارجيا ذا مرجعية واقعية، بينما يجسد الثاني زمنا داخليا نصيا. أكثر من ذلك، فإن "زمن الخطاب بمعنى من المعاني زمن خطي، في حين أن زمن القصة هو زمن متعدد الأبعاد"[18].

لكن السؤال الذي يطرح ههنا: هل يتقيد السارد - حينما يكون بصدد سرد تجربة معينة - بالزمن الطبيعي في تسلسله وتتابعه، كما جرت فيه وقائع وأحداث ومواقف تلك التجربة؟ إن السارد لا يتقيد على الدوام بذلك الخط التعاقبي الزمني، بقدر ما يتوسل بآليتي (الاسترجاع) و(الاستباق). ونحسب أن

فهم العمل السردي الروائي أيا كان نوعه، يستدعي الوعي بالأنماط الزمنية وأطرها النظرية السالفة الذكر. وهو ما نجده في الرواية قيد الدرس، بحيث يرد الزمن متشابكا متداخلا، لا يمكن فهم بنياته وتشكلاته إلا بالسفر الدائب بين ماضي الشخصيات وحاضرها ومستقبلها.

ولقد استطاع طواف عبر فعل الكتابة، رصد أحوال ذواته السردية في الأزمنة المختلفة، معتمدا تارة آلة الحلم واستشراف المستقبل، وتارة أخرى آلة الاسترجاع الزمني وامتطاء صهوة الذاكرة في الربط بين ماضي الشخصيات في البلد الأصل ومآلها في بلد المهجر. إذ جعل كل شخصية من شخصياته تحمل في ذهنها صورة وردية جميلة عن البلدة، فتتُوق إلى معانقة أحضانها. وبذلك أسعفه استخدام الزمن والتذكر بصورهما المتنوعة على المقارنة والموازنة بين حال الشخصيات في أمكنة وأزمنة متباينة.

وتنجلي معالم تشغيل الذاكرة والاتكاء عليها في إنتاج المعرفة السردية وتشكيل معمار المادة الحكائية في المتن قيد الدرس، في رسوخ صورة فرنسواز في وجدان بوكرن. فقد ذكَّرته غرفة النباش المليئة بالسلع والمتلاشيات والصناديق، ببيته الذي حصل فيه لقاؤه بها. "استرجع بوكرن أول اختلاء له بفرنسواز في بيته، وقد فوجئت بأكداس من الحقائب والصناديق... فلما سألته إن كان يستعد للسفر دون علمها، طمْأنها بأنه لن يطأ البلد من دونها"[19].

ثم إن حسن النباش انبنى مقامه بالمهجر خاصة بعد تفرق أصدقائه شذر مدَر، على الذاكرة التي يراهن عليها كثيرا لرتْق الفتوق الزمنية والوصل بين منعرَجاتها ومعطفاتها. كانت وحدته ووحشته تملي عليه السفر في الزمن. فهو ما يفتأ يستحضر شريط حياته بالبلدة، وعلاقته بالزوجة والصهر، والحنين إلى البنت، واستدعاء صورة معلمه لمادة اللغة الفرنسية، فضلا عن حديثه مع بوكرن عن "ذكريات الطفولة، مرورا بالحصول على عقدة العمل، والسفر إلى عين برجة من أجل الفحص الطبي، وانتهاء بالوضعية التي يوجدان عليها"[20].

وبقدر ما يعمد الكاتب إلى التذكر، يراهن على الحلم والمونولوج الداخلي في

تقريب البعيد واستحضار المحلوم به. مثال ذلك حلم النباش بملاقاة بريجيت في أحد المطاعم واستمتاعهما بلذة اللقاء، وبالأطعمة والأشربة الباريسية اللذيذة، بعيدا عن تلك التي يتناولها على الدوام، ذات المذاق والنكهة المغربية. "ما انفك يتخيل ملامح بريجيت. بدت له أولا كأنها امرأة حديدية. صوت آمر ينمّ عن شخصية تثق كثيرا في نفسها وفي ما تقول. أما هو فيستجيب بصوت خافت... تجلس قبالته في مطعم باريسي عتيق، تتلاقى خيالاتهما وتفترقان تحت ضوء خافت لشمعة حمراء، غارقة في صحن لامع يتوسط المائدة"[21].

ويمكن ملامسة الذاكرة وهي متوقدة منتعشة أيضا، إن تأملنا مآل إبراهيم بعد حصوله على التقاعد وعودته إلى القرية. يتأمل بيت الأسرة الذي صار مهجورا غادره الجميع، وإن كان يحمل في طياته ذكريات كثيرة بالنسبة إليه. هو كتاب يقرأ فيه ماضيه، ويشحذ مخياله، فيستحثه على استعادة الذكريات والوقائع المرتبطة بزمن غبر، وتغرف أحاديثه مادتها الحكائية من مرحلة الشباب التي يحاول الاستمساك بتلابيبها بواسطة آلية التذكر والاسترجاع الزمني. "عندما حل بقريته ذات صباح ممطر، لم يجد أحدا في استقباله. يتأمل خراب ساحة مغامرات طفولته. هناك كنت ألعب، وهناك كنت أرعى البقر، وهناك كان يقام الموسم السنوي"[22].

ولنا أن نستذل كذلك على نشاط الذاكرة وانتعاشها وتوهجها بشخصية (بريجيت)، التي تكابد في أواخر حياتها العزلة والغربة والوحدة. لذا نجدها تستعين بالذاكرة في كل مرة لوصْل الماضي بالحاضر، وقد تستشرف المستقبل الغامض الذي يراودها، فتتداخل بذلك الأزمنة الماضية مع الحاضرة والمستقبلة في ذهنها. تلقي أحداث الرواية الضوء على هذه الشخصية أثناء مقامها بالمغرب بمعية أسرتها، وهي شابة تستمتع بجماله ومشاهده السياحية البارعة ولحظة تعرفها على صديقها جون كلود ب (تاغَزوت) قرب مدينة أكادير. "ما إن وضعت قدميها على الصخر، حتى أحست بشيء يشبه الخدر يسري في جسدها. أيقنت أن للمكان سحره وجاذبيته، وربما مفاجآته"[23].

وبالجملة، فإن الذاكرة تترجم ما تعيشه الشخصية في الرواية، من ارتباك واضطراب وتداخل الأزمنة والأمكنة في ذهنها، مستشعرة الغربة والضياع. "إن المواطن الذي يغادر وطنه وأهله وأسرته وأصدقاءه ووَسَطه الذي نشأ فيه، في اتجاه بلدٍ أجنبي عنه، يتعرض لهزّات نفسية وتفكُّكات اجتماعية... والمهاجر الذي لاً يعرف لغة البلد الذي سيُقيم فيه، سيُواجِه مشاكل عديدة نتيجة هذا العامل، تُضاف إلى ذلك عواملُ أخرى عِرْقية وثقافية وحضارية ودينية"[24]. وبمُكنة ذلك كله، أن يجعلها تثير سؤال الهوية بحدة، وتبحث عن سبل مواجهة الاغتراب وآليات الاندماج.

3 – الهوية، محنة الاغتراب وصعوبة الاندماج الثقافي:

تمثل الرواية على حد تعبير فلاديمير كرزينسكي (Wladimir Krysinski) ملتقى العلامات (carrefour de signe)، سواء تعلق الأمر بالشخوص أو بالفضاءات والأزمنة والرؤى السردية وآليات التهجين والأسْلَبة والحوار والتناصّ والوصف وغيرها. وبذلك فإن اللسانيين يرون في اسم العلم وحدة فارغة، بينما يعتبر داخل عالم المتخيل الروائي مكانا مليئا، وبرنامجا سرديا، مثلما يرى فليب هامون (Philippe Hamon)[25]. وبوسع استنطاق العلامات النصية للرواية قيد الدرس ورموزها السردية، أن يجسد مفهوم الهوية الثقافية العربية بعامة والمغربية بخاصة، ويرصد ملامحه المتعددة الأبعاد.

يعتبر بيت الحاج علي محضنا رئيساً للهوية المغربية، بدءا بصالونه المؤثث بآيات قرآنية وكتابات مذهبة تزين الجدران، وكؤوس وأوان زجاجية، ودولاب كبير، ولوحة للكعبة المكرمة، وتُحَف الصناعة التقليدية، وصور الأبناء، وانتهاء بمدار حوارات الشخصيات المترجمة لانشغالاتها واهتماماتها المؤرقة، (التربية، الوطن، الحفلات العائلية... ثم إن ما يدور في خلد الحاج وزوجته من هواجس وانشغالات وأحلام وطموحات، محكوم بسؤال الهوية المؤرق للذات المهاجرة في الرواية.

كما تنجلي معالم الهوية المغربية والعربية في أحاديث عبد الرزاق وحواراته، لما

حل ضيفا عند الحاج بنية خطبة ابنته سميرة. سرد تفاصيل رحلته من المغرب إلى فرنسا عبر الأندلس، مستعيدا برنامج السفر القائم على تلاوة آيات بينات من الذكر الحكيم، وعرض أشرطة غنائية مغربية، واستدعاء مكونات المطبخ المغربي، وممارسة الشعائر الإسلامية، والوقوف عند التضاريس والمواقع الجغرافية المغربية والأندلسية. وعلى هذا النحو تكون شخصيات الرواية قد أسهمت في بلورة منظومة من القيم الثقافية والحضارية العربية والمغربية، القائمة على التمسك بالأصالة وثوابتها الدينية واللغوية والتاريخية، والانفتاح في الآن نفسه على الحداثة الجديدة الوافدة من الغرب ومنظومتها القيمية، الرامية إلى التسامح والديمواقراطية والمساواة وحرية التعبير.

والواقع أن انفتاح المغربي بخاصة والعربي بعامة على الآخر، ظل هاجسا مؤرقا ومادة خصبة للكتابة الشعرية والسردية والمسرحية والسينمائية العربية المعاصرة، وثنائية البادية والمدينة، والمرأة، وغيرها. ولعل استدعاء صور الوطن ورموزه من الواقع والذاكرة التاريخية، يكشف عن تعطش الذات وحنينها القوي إلى موطنها الأصل، فتظل مستمسكة بكل الخيوط التي تصلها به.

هكذا نلمس حضور صورة البلد الأصل في مخيال الذوات السردية في الرواية، وتوْقها الجارف للعودة إليه. إذ يعتبر الملاذ الوحيد الذي يحمي الأنا مما تكابده في المهجر، من عوامل الغربة وصعوبة الاندماج والتفاعل المتوازن مع الآخر، المختلف عنها لغة وثقافة وحضارة. وموازاة مع هذه الصورة، تحضر صورة المهجر كما تتنازعها الذوات السردية المحكومة بالرغبة الدفينة في التعرف على الآخر والنهل من ثقافته.

لا مراء في أن للهجرة فوائد ومزايا جمَّة، لكنها تولِّد بالمقابل عند المهاجر توترا وصراعا داخليا بين هويتين مختلفتين، مما يؤجج وهج الذاكرة ويثير الحيرة القلق. ولقد خلص أمين معلوف بعد مُدارسته صدام الهويات وتناطحها في ذهنية الكثير من المغتربين، إلى ضرورة الاندماج وردم الهوة السحيقة بينها. إذ "يجب تشجيع كل منا على الاضطلاع بتنوعه الخاص، وإدراك هويته، بوصفها

حصيلة انتماءاته المختلفة، بدلا من اختزالها إلى انتماء واحد، ينصّب علويا وأداة استبعاد وأداة حرب أحيانا"[26].

ومن هذا المنظور ذاته، يدعو عبد الكبير الخطيبي (ت 2009م) إلى إعادة النظر في مفهوم الهوية بتحريره من سلطة الماضي، وتوسيع دائرته، وجعله مواكبا للتحولات المعاصرة. "فلا يمكن للهوية الأصلية التي تقوم على الأصول اللغوية والدينية والأبوية، أن تحدد وحدها العالم العربي. فهذه الهوية قد تصدعت وتمزقت بفعل الصراعات والتناقضات الداخلية"[27].

ويشبه الوطن (Home) - اللفظ الجامع في الإنجليزية بين الدلالة على البيت والوطن - في تقدير الفيلسوف الظاهراتي كاسطون باشلار (Gaston Bachelard) عشا آمنا، تعود إليه الطيور المهاجرة لترتاح من عناء التحليق ومخاطر الترحال، وتتزود بالحماية اللازمة لمقاومة عاتيات الزمان. "إن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا، ذا أبعاد هندسية وحسب. فهو مكان عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيُّز."[28].

وتبعا لذلك فإن ما تعيشه شخصيات النص من مظاهر الاغتراب والتقوقع والانعزال والتهميش والإقصاء والنظرة الدونية، نابع من صعوبة اندماجها في الثقافة الغربية، فتعيش على الهامش. وهو ما يفسر المهاجرين في أحياء خاصة ومقاهٍ يديرها أبناء وطنهم، واحتماء بعضهم بالبعض الآخر من الثقافة الغربية المادية، التي قلما تعترف لهم بالجميل. بل إن نظرة أبناء جلدتهم غير المهاجرين نفسها، تقسو عليهم في أحايين كثيرة، فتشتد عزلتهم وغربتهم هنا وهناك.

نشأت سميرة التي ترمز للجيل الثاني من المهاجرين المغاربة إلى الديار الأوروبية في المهجر، لكنها تعيش صراعاً داخلياً بين التشبُّث بتقاليد البلد الأم والتمسك بثوابته وهويته، وبين الذوبان في الأنموذج الحضاري الغربي المُحتضِن لها لغوياً واجتماعياً ومهنياً وثقافياً. فهي وإن كانت أكثر انفتاحا وتحررا وقدرة على التواصل ونسج العلاقات مع الأصدقاء والزملاء من المهاجرين والفرنسيين في

الشارع والمدرسة والعمل، إلا أنها مع ذلك تعاني مشاكل معقدة.

وقد صوّر لنا الباحث سعيد العمراني جانبا من هذا التناقض الذي يجده الشباب المغربي والعربي بالمهجر الأوربي، من أبناء الجيلين الثاني والثالث بقوله: «إن التناقض بين تربية الآباء وما يتعلمونه في المدارس والشوارع، يشكّل أمَّ المُشكلات بالنسبة للأجيال الجديدة. ففي المنازل كلُّ شيء مصمَّم على الطريقة المغربية التقليدية... أما في المدارس فإن قوانين البلد هي المتحكمة، بكل ما تحمله من ضوابط وأدوار تربوية وزَجْرية، تصل أحياناً إلى منْع حمل (الفُولارَة)، أو الحجاب، في المدارس والوظائف العمومية بالنسبة للفتيات المتحجِّبات مثلاً"[29]. ومن شأن غياب الاندماج وصعوبته، أن يجعل شخصيات النص تكابد الاغتراب الذي ظل راسخا ومتجذرا في الثقافة العربية منذ بداية عصر النهضة، مثلما جسده رفاعة الطهطاوي (1873م)، وعبد الرحمان الكواكبي (ت 1902م)، ومحمد عبدو (ت 1905م)، وقاسم أمين (ت 1908م)، ورشيد رضا (ت 1935م) في كتاباتهم.

هذا وقد استثمرت في البناء السردي للرواية، سلسلة من الإشارات الثقافية واللغوية والاجتماعية التي تترجم هوية شخصياتها على سبيل التناص. ويمثل التناص - في تقدير روبرت دي بوكراند (Robert de Beaugrande)- سندا من أسانيد (النص) وأحد المعايير المميزة له عن (اللانص). فهو "يتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به، وقعت في حدود تجربة سابقة، سواء بوساطة أو بغير وساطة"[30].

وتبعا لذلك، يمكن قراءة كل نص على أساس أنه فضاء لتسرُّب وامتداد نصوص في نصوص أخرى. وهو ما نجده في رواية "نباش زنفة باريس" التي تستوعب أجناسا أدبية وأشكالا تعبيرية شتى، نذكر منها الأمثال والحكم والحكايات والنوادر لاسيما المستوحاة منها من الثقافة المغربية الشعبية؛ من قبيل ما ورد على لسان بوكرن متحديا أصدقاءه في مقبرة الكلاب "شْحال تعطيوني نقطع هاد الواد بالعُوم؟"[31]، وقول عبد الرزاق لبوكرن في جلسة خمر على ضفّة السّين: "شُوف أبو

كرن، السبع إلى شرْف كيكلوه الكلاب"[32].

ونذكر أيضا استدعاء إشارات ثقافية من التراث العربي، كالإشارة إلى ابن بطوطة، وحكايات ألف ليلة وليلة، وتوظيف عبارات بالدارجة المغربية وباللغة الفرنسية على سبيل التهجين والأسلبة. كما استثمر الكاتب ثقافته الفنية الأمازيغية والفرنسية التي تتمثل في أشكال غنائية وموسيقية، كمجموعة إزْنزارن وجامع الحميدي والعربي الحمري وجاك برال (Jacques Brel). زدْ على ذلك تفاعل الرواية مع فن الترسل الذي يعتبر الأداة الأساس للتواصل بين الذوات السردية، إن بصيغتها الورقية أو الإلكترونية. ولا نغفل أن الرواية تتخللها أناشيد ومقاطع شعرية متعددة، تترجم عواطف هذه الشخصيات وهواجسها النفسية الدفينة. وبذلك تُفلح الرواية في رسم ملامح الأنا والآخر، ورصد معالمهما اللغوية والثقافية والحضارية.

خاتمة:

وبالجملة فإن الهجرة في عصرنا الراهن أضحت ظاهرة إنسانية وقضية فكرية ضاغطة، ولهذا اعتنت بها الآداب العالمية في الزمن الراهن أكثر من أيّ زمن مضى. ولعل رواية عبد الله طواف تصبّ في هذا الاتجاه، مُسهمة في تغيير الصورة الوردية المرتسمة في ذهن الكثير من الشباب المغربي والعربي اليوم تجاه الغرب. عمل أدبي يتراوح بين رواية الشخصية ورواية الأطروحة، تسعى إلى إقناع القارئ بكون رحلة العبور إلى الديار الأوروبية محفوفة بالمشاكل والإكراهات، تجعل المهاجر يصارع التفكك العائلي ومفارقة الأهل والخِلان في البلد الأصل، فضلا عن الانكماش والتهميش وصعوبة الاندماج اللغوي والثقافي والاجتماعي والمهني في البلد المستقبل.

الرواية مفعمة بإخفاقات تلك النماذج من البسطاء وأفراحهم وأتراحهم وآلامهم ومعاناتهم، تحول عوامل كثيرة دون نجاحها في الحفاظ على توازنها النفسي، وعلاقاتها الاجتماعية السوية في المهجر. ثم إن إسناد بطولة الرواية إلى حسن النباش مثلما يشهد على ذلك حضوره الوازن في عنوانها ومتنها، مبني على

اعتبارات كثيرة. من جملتها محاولة مقاومة الصدام الثقافي بين الذات والآخر، وتحدّي مشكلات الهجرة، على خلاف الشخصيات الأخرى التي استسلمت وعادت إلى الوطن عودة فاشلة.

ولئن جسدت الرواية صورة المهاجر المغربي من الجيل الأول والجيل الثاني، ممن كابد إكراهات الغربة وهواجس الهوية، فإن هذه الصورة في تقديرنا لا تسري على الجيل الثالث القادر نسبيا على التأقلم مع مقتضيات الهجرة. ولا أدل على ذلك من انفتاحه الواسع على اللغات والثقافة الأجنبية، ووعيه بالفروق الجوهرية القائمة بين الضفتين، فضلا عن التدابير والإجراءات المتخذة في العقود الأخيرة من لدن البلدان المستقبلة والتي يفِد منها المهاجرون، الرامية إلى تقنين الهجرة وضبطها وتيسير سبُل المهاجرين واختيار ذوي الكفاءات منهم.

وعلى المستوى الخطابي والسردي، فإن عبد الله طواف راهن كثيرا على الذاكرة المرِمّمة للتشظي الزماني والمكاني الذي تجابهه الذوات السردية، كما كثف من السراد المتناوبين على نقل الحكاية وأسلوب السخرية والتهيجن والتناصّ، فضلا عن شحن نصه بنظُم وأنساق معرفية مترجِمة للهوية المترجّحة بين ثقافة الموطن الأصل وثقافة بلد الاستقبال.

الهوامش:

1 - ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي- مؤسسة التاريخ العربي، ط3، بيروت 1999م/ نبش.

2 - عبد الله طواف: نباش زنقة باريس، رواية صادرة عن العالمية للنشر، ط1، الدار البيضاء 2012م، ص 51-52.

3 - حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء 2000م، ص 64.

4 - سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي: الزمن السرد التبئير، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء 1993م، ص 240.

5 - جنيت، جيرار وآخرون: الفضاء الروائي، ترجمة عبد الرحيم حزل، أفريقيا الشرق، ط1، الدار البيضاء 2002م، ص 5 (مقدمة حسن بحراوي).

6 - نباش زنقة باريس، ص 43.
7 - نفسه، ص 154- 155.
8 - نفسه، ص 225.
9 - نفسه، ص 25.
10 - نفسه، ص 26.
11 - نفسه، ص 68.
12 - نفسه، ص 52.
13 - نفسه، ص 232.
14 - نفسه، ص 39.
15 - نفسه، ص 215.
16 - نقسه، ص 225.
17- رشاد أبو شاور: رائحة التمر حنة، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، ط1، بيروت 2007م، ص 82-83.
18 - مقولات السرد الأدبي، ترجمة الحسين سحبان وفؤاد صفا، ضمن كتاب "طرائق تحليل السرد الأدبي"، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، الرباط 1991م، ص 55. وقد توقف تودوروف وأوزفالد ديكرو عند المصطلحين كثيرا، متتبعا أصولهما عند هلمسليف وغيره وصور التعالق بينهما، كما نقرأ في معجمهما:
Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Col. Points, Paris 1972, pp. 308-404.
19 - نباش زنقة باريس، ص 81.
20 - نفسه، ص 68.
21 - نفسه، ص 102.
22 - نفسه، ص 225.
23 - نفسه، ص 89.
24 - المختار مطيع: الهجرة المغربية إلى أوربا، سلسلة "دفاتر مركز الدراسات والأبحاث حول حركات الهجرة المغاربية"، ع3، جامعة محمد الأول وجدة، كلية الحقوق، 1994م، ص 12، بتصرف.
25 - تُنظر دراسته "من أجل سيميائية تعاقبية للرواية"، ضمن كتاب "طرائق تحليل السرد الأدبي" لمجموعة من الباحثين، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، الرباط 1991م،

ص 150.

26 - الهويات القاتلة: قراءات في الانتماء والعولمة، دار ورد، ط1، دمشق 1999م، ص 139.

27 - النقد المزدوج، مطابع منشورات عكاظ، ط1، الرباط 2000م، ص 11.

28 - ينظر "جماليات المكان"، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط2، بيروت 1984م، ص 31.

29 - سعيد العمراني: مشكل الهوية والاندماج عند الشباب من أصل مغربي بأوروبا، مقال منشور رقمياً في موقع "شبكة دليل الريف"، بتاريخ 2010/01/05. انظر الرابط:
http://dalil-rif.com/home/-indimaje050110

30 - النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط1، القاهرة 1998م، ص 104.

31 - نباش زنقة باريس، ص 19.

32 - نفسه، ص 19.

References:

1 - Al-ʻArwī, Abdallah: Al-ʻArab wa al-fikr at-tārīkhī, Dār al-Ḥaqīqa, 1st ed., Beirut 1973.

2 - Abū Shārū, Rashā: Rā'iḥat at-tamr ḥinna, Al-Mu'assasa al-ʻArabiyya li al-Dirāsāt and Al-Markaz al-Thaqāfī al-ʻArabī, 1st ed., Beirut 2007.

3 - Al-Ḥamdānī, Ḥamīd: Bunyat an-naṣ as-sardī min manżūr an-naqd al-adabī, Al-Markaz al-Thaqāfī al-ʻArabī, 3rd ed., Casablanca 2000.

4 - Al-Khaṭībī, ʻAbd al-Kabīr: An-naqd al-muzdawij, Manshūrāt ʻUkkāz, 1st ed., Rabat 2000.

5 - Al-Shāfiʻī, Muḥammad Ibn Idrīs: Dīwān, edited by Muḥammad ʻAbd al-Munʻim Khaffājī, Kulliyyat al-Azhar, 2nd ed., Cairo 1985.

6 - Bachelard, Gaston : La poétique de l'espace, translated by Ghālab Halsā, Al-Mu'assasa al-Jāmiʻiyya li al-Dirāsāt, 2nd ed., Beirut 1984.

7 - Barakāt, Ḥalīm: Thaqāfat al-ightirāb, Marqaz Dirāsāt al-Waḥda al-ʻArabiyya, 1st ed., Beirut 2006.

8 - Beaugrande, Robert-Alain de: Text, discourse, and process, translated

by Tammām Ḥassan, ʻĀlim al-Kutub, 1st ed., Cairo 1998.

9 - Ducrot, Oswald et Tzvetan Todorov : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Col. Points, Paris 1972.

10 - Genette, Gérard : Nouveau discours du récit, translated by Muḥammad Muʻtasim, Al-Markaz al-Thaqāfī al-ʻArabī, 1st ed., Casablanca and Beirut 2000.

11 - Genette, Gérard et al.: L'espace et le récit, translated by ʻAbd al-Raḥīm Ḥazl, Afriqiya al-Sharq, 1st ed, Beirut 2002.

12 - Ibn Manżūr: Lisān al-ʻarab, Mu'assasat al-Tārīkh al-ʻArabī, 3td ed., Beirut 1999.

13 - Maalouf, Amine : Les identités meurtrières, Dār Ward, 1st ed., Damascus 1999.

14 - Tawwaf, Abdallah: Nabbāsh zunqat Paris, Dār al-ʻAlamiyya, 1st ed, Casablanca 2012.

15 - Yaqṭīn, Saʻīd: Taḥlīl al-khiṭāb ar-riwā'ī, Al-Markaz al-Thaqāfī al-ʻArabī, 2nd ed., Casablanca 1993.